بوذا

مقال لم ينشر للفيلسوف الروسي تولستوي

من ألفين وأربعمائة سنة خلت عاش في الهند الملك « سودهودان » وكان متزوجاً زوجتين شقيقتين لم تلدا له أولاداً الأمر الذي سبب له حزناً عميقاً ولما انقطع حبل رجائه ولدت له زوجته الكبرى مي صبيا فسر الملك سروراً لا يوصف ولم يضن بشيء على تربية ورفاه ولده هذا الذي دعاه سيد هارت وكان غلاماً ذكياً بهي الطلعة طاهر القلب صالحاً ولما بلغ التاسعة عشرة من عمره زوجه من ابنة عمه وأسكن الملك العريسين في قصر باذخ شاده وسط حدائق غناء وغابات غيباء وفرشه بالرياش الفاخر وجمع فيه كل ما تقر به العيون وتسر الخواطر

ورغبة منه في عدم تسرب الحزن الى فؤاد نجله الوحيد أمر الخدم ان لا يسببوا له كدراً ولا يقصوا على مسامعه أخباراً مؤلمة تشوش افكاره وتهيج اعصابه

أقام ولي العهد في قصره الباذخ ولم يخرج منه ابداً ولم ير في أملاكه شيئاً فاسداً غير طاهر بل رأى كل شيء نضراً بهجاً وكان الخدم يعتنون بتنظيم الحديقة ونظافتها حتى أنهم كانوا ينزعون أوراق الاشجار الذابلة وكان الغلام يرى كل ما يحدق به جميلا لطيفاً

عاش ولي العهد سيد هارت على هذا المنوال سنه ونيفاً بعد زواجه وفي ذات يوم ركب عربته وسار وسط املاكه الشاسعة وخطر على باله ان يتجاوز حدودها ليرى كيف يعيش الناس وأمر السائق ان يقوده الى المدينة ففعل ورأى هناك الشوارع والمنازل والرجال والنساء بملابسهم المختلفة والمخازن والسلع والبضائع وكانت هذه المناظر جديدة لم يعهدها من ذي قبل . ورأى في أحد الشوارع رجلا شيخاً مستنداً على جدار بئن أنيناً مؤلماً وكان وجهه شاحباً تعلوه الاسارير فسأل خادمه عما أصاب هذا الرجل فأجابه يظهر أنه مريض فقال ولي العهد وما معنى مريض ؟

— مريض يعني ان جسمه منحرف مختل

— وماذا حدث له ؟

— أصيب بمرض

— وهل جميع الناس يمرضون مثله

— نعم

ولم يزد ولي العهد سؤالاً على هذا وبعد خطوات معدودة دنا من عربته شيخ متسول أخنت الأيام ظهره وقد احمرت عيناه وطلب منه احساناً فقال ولي العهد للسائق : وهل هذا مريض ايضاً

— كلا بل أنه شحاذ عجوز

— وما معنى عجوز

— انه عاش طويلا في هذه الدنيا

— وهل جميع الناس يشيخون ويحدث مثل هذا لكل من يعيش طويلا

نعم

— وهل يحدث لي مثل هذا اذا عشت طويلاً

— نعم

— إذن أسرع بي الى القصر

فأهب الحوذي الخيل بالسياط ولكن استوقفهم في الطريق جمع من الناس يحملون على خشبة شبه انسان

فسأل ولي العهد السائق ما هذا ؟

— تشاناً هذا ميت

— وما معنى ميت ؟

— ميت يعني ان حياته انتهت

فنزل الشاب من العربة ودنا من حاملي الميت ورأى عينيه المفتوحتين بلا حراك كالزجاج وأسنانه المكشونة واعضاءه الخامدة ثم سأل خادمه وماذا جرى له ؟

— لقد وافاه الموت وجميع الناس يموتون

ثم ركب عربته وعاد الى البيت وكان مطاطئ الرأس ولم ينبس ببنت شفة

وقضى سحابة نهاره جالساً في احدى زوايا الحديقة منفرداً مفكراً بما رأى في ذلك النهار وقال لنفسه :

جميع الناس يمرضون ويشيخون ثم يموتون ولكن كيف يستطيعون العيش وهم يعلمون انه في كل ساعة يأتيهم المرض وأنهم يتدرجون في الحياة حتى يبلغوا سن الشيخوخة وتنحط قواهم وأنهم في كل ساعة مهددون بالموت . وكيف — وهم على ما ذكرت — يتسرب السرور الى أفئدتهم بل كيف يلهو الانسان وهو يعلم أنه لا بد له من شرب كأس المنون . ان هذا لا يطاق ابداً ولا بد من البحث عن مخلص من هذا وأني سأجده ومتى وجدته أعلمه الناس . ولكي أجده يجب علي أن أبتعد عن هذا القصر الذي كل ما فيه يحول بيني وبين افكاري هذه . يجب عليّ أن اترك زوجتي وأبي وأذهب الى النساك والحكماء لأسألهم كيف يفسرون هذا

ولما صحت عزيمته استدعى في الليلة التالية حوذيه تشاناً وأمره أن يسرج له جواداً ويفتح له باب القصر . وقبل ان يغادر القصر دخل على زوجته فوجدها مستغرقة في نومها فلم يوقظها بل ودعها وسار بخفة حتى لا يوقظ أحداً من الخدم والاماء ولما بلغ الباب امتطى صهوة جواده وسار منفرداً لا يلوي على شيء وقطع مسافة طويلة في سفره ثم اطلق جواده وسار مشياً على الاقدام وبدل ملابسه بملابس راهب صادفه في الطريق وقص شعره وقصد حكماء البراهمة النساك ليسألهم ايضاح ما لم يستطع فهمه فأخذه أحد البراهمة وعلمه مذهب البراهمة الذي يلخص فيما يأتي : ان نفس الانسان تنتقل من مخلوق الى مخلوق وان الانسان كان في حياته السابقة حيواناً وبعد موته تتقمص نفسه اما الى مخلوق سام واما الى مخلوق منحط بالنسبة الى حياته على الارض . فهم سيد هارت هذا التعليم ولكنه لم يقبله وبعد ان أقام بين البراهمة نصف سنة غادرهم وتوغل في الغابات الكثيفة حيث كان يعيش المعلمون النساك المشهورون وأقام بينهم ست سنوات منعكفاً على الصوم والتعب واشتهر زهده وتقشفه بين الناس واجتمع حوله عدد عظيم من التلاميذ الذين كانوا يعظمونه كثيراً ولكنه لم يجد عند هؤلاء المعلمين ما كان يبحث عنه وندم كثيراً على تركه

قصره وأراد ان يرجع الى أبيه وزوجته غير أنه لم يعد الى قصره بل ترك معلميه وتلاميذه وتوغل بين تلك الغابات حتى بلغ مكاناً لم تطأه قدم انسان زاعماً أنه يقي نفسه من المرض والشيخوخة والموت وقد تحمل كثيراً من شظف العيش وبينما كان جالساً ذات يوم تحت شجرة مستغرقاً في افكاره التي ارشدته الى ما كان يبحث عنه وبدا له طريق الخلاص من آلام الشيخوخة والموت . ظهر له طريق الخلاص في حقائق اربع وهي : (اولا) ان جميع الناس معرّضون للآلام (٢) ان الشهوات الغرامية سبب تلك الآلام (٣) للتخلص من الآلام يجب قمع الشهوات برمتها (٤) لقمع الشهوات يجب الأخذ بأربعة أمور (١) يقظة القلب (٢) تطهير الافكار (٣) تحرير النفس من الشر والحقد والغضب (٤) محبة الناس ومحبة كل شيء حي

وقبل اماتة الجسد يجب تطهير النفس من الافكار الشريرة ولا يستطيع المرء تحرير نفسه من الآثام الا بالمحبة . والمرء الذي يحل المحبة محل الشهوات ذاك يقطع سلاسل الجهل والشهوات ويخلص من الآلام والموت

ولما انكشفت هذه الحقائق لسيد هارت ترك البرية وترك الصوم والتقشف واختلط بالناس وجعل يعلمهم تلك الحقائق ولما فهموها اجتمع حوله مئات من التلاميذ . اما البراهمة فقد ساءهم انتشار هذه التعاليم التي أخذ الناس بها وجعلوا يضطهدون سيد هارت أو بوذا المعلم العظيم الذي لم يعبأ بهم بل واصل تعليم الناس وحصر مبادئه في عشر وصايا وهي :

(١) لا تقتل . وحافظ على حياة كل حي
(٢) لا تسرق ولا تنهب ولا تختلس من الناس ثمر أتعابهم
(٣) كن حكيما في افكارك وحياتك
(٤) لا تكذب وقل الحق بدون خوف ولا وجل
(٥) لا تتكلم بحق الناس ولا تعد ما يقوله الآخرون ضد الناس
(٦) لا تحلف مطلقاً
(٧) لا تضع الوقت بالثرثرة والكلام التافه بل قل الحق او اصمت

(٨) لا تطمع ولا تحسد وافرح لخير قريبك

(٩) طهر قلبك من الشر ولا تبغض أحداً وحب الجميع

(١٠) اجتهد حتى تفهم الحق

ولبث بوذا ستين عاماً يطوف البلاد مبشراً الناس بتعاليمه هذه وفي سنيه الأخيرة تسرب اليه الضعف والهزال ولم يقعده ذلك عن التجول والتعليم ولكنه وقف ذات يوم من شدة التعب وقال « ان العطش يجهدني » فقدم له تلاميذه ماء شرب منه قليلا ثم تابع السير ولكنه عاد ووقف عند نهر « هارانيفات » وجلس تحت شجرة وقال لتلاميذه : « لقد دنت ساعة أجلي واذكروا بعدي كل ما قلته لكم » فلم يستطع تلميذه « أنانادا » سماع ذلك فانتحى ناحية وجعل يبكي . فاستدعاه بوذا وقال له : كفكف دموعك ولا تبك ولا تضطرب لأنه لا بد لنا من مفارقة ما نحب ان عاجلا أو آجلا وهذه الحياة فانية زائلة ثم استطرد الكلام وقال : يا اصدقائي ! : عيشوا كما علمتكم . وابتعدوا عن الناس الذين يلقون شباك العثرات والشهوات وسيروا في الطريق الذي أرشدتكم اليه واعلموا ان هيكل الجسم سينهدم ولا يبقى غير الحق وابحثوا عن الخلاص في الحق . وكانت هذه آخر كلمات فاه بها

الدين هو فلسفة يفهمها الجميع — تولستوي

تزوج تاجر بملكة وبنى لها قصراً وابتاع لها حللا فاخرة وأحاطها بمئات من الخدم والحشم وحاول بكل ما أوتي من قوة ادخال السرور الى فؤادها ولكن الملكة كانت في حزن دائم مقيم لأنها كانت دائماً أبداً تفكر بأصلها الملكي . وهكذا النفس في الجسم يحيطها الانسان بجميع مسرات الارض ولكنها دائماً حزينة لأنها تفكر بمنزلها تفكر في المصدر الذي خرجت منه وهو الله

التلمود

يجب ان تحب الله فقط وتبغض نفسك فقط

باسكال .